والاكتشاف ولو بقي في بلادهِ لدفنت قريحتهُ حيث دُفن كثير من القرائح ولم يستفد هو ولا استفاد منهُ نوع الانسان

الرجال والمناصب

قيل اجتمع اربعة رجال في استراليا منذ مدة وجيزة ثلاثة منهم رعاة غنم والرابع صاحب تلك الغنم. اما الثلاثة فواحد منهم درس في مدرسة اكسفرد الجامعة ونال شهادتها والثاني درس في مدرسة كمبردج الجامعة ونال شهادتها وهما اعظم مدارس الانكليز. والثالث درس في مدرسة جرمانية جامعة ونال شهادتها. والرابع لم يدرس في مدرسة ولا يكاد يحسن القراءة ولكنهُ احيا ارضاً موانًا في استراليا وربّى فيها قطعان الغنم فاغتنى منها واستخدم اولئك العلماء لرعايتها بعد ان ضاقت في وجوههم ابواب الرزق. وقال احد مشاهير الكتّاب الاوربيين ان رجل الدنيا يعرف امورها كما يعرف الجبنَ دودهُ فان هذا الدود يولد في الجبن ويعيش فيهِ ويغتذي منهُ ولا يخطر ببالهِ اللبن ولا البقرة ولا المرعى ولا شيء من جميع الاسباب والوسائط التي ولّدت الجبن بل الجبن نفسهُ وهو يتمثل بهِ في لونهِ وطعمهِ حتّى اذا اكلهُ احدٌ خطأً مع الجبن لم يجد فرقًا بين طعمهِ وطعم الجبن

ومهما يكن في هذين المثلين من الحقارة التي تعافها النفس ترفُّعًا والكراهة التي يعافها الذوق تقزُّزًا فانهما يمثّلان جانبًا كبيرًا مما يُرى من فلاح البعض وفشل البعض الآخر. فكم من تاجر لو اراد الدرّ يطبخهُ وهو يجهل القراءة وكتّابُ مخزنهِ ووكلاء تجارتهِ من الذين تلقّوا دروسهم في اعلى المدارس ونبغوا فيها او هم من ارباب النثر والنظم والتأليف والتصنيف. وكم من وزير رقي ارفع المناصب السياسية ودانت لهُ العباد وهو ليس على شيء من العلم ولا يمتاز على بعض كتّابهِ في الذكاء. ولا يخطر على بال احد من طلّاب التجارة ان يقول للتجّار الكبار تنحّوا عن الاعمال فقد كفاكم ما كسبتم من الاموال لان العقل والنقل يدلّان على ان العمر ميدان جهاد وكلٌّ ينال منهُ على قدر جدهِ وفرصهِ ووسائطهِ وقلَّ ان يخرج احد من هذا الميدان عفوًا ويترك مواقف النصر لغيره اطاعةً لامر احد من الساعين في اثره. بل يبقى الظافر في موقفهِ الى ان تدركهُ المنية او يعتزله من تلقاء نفسهِ طلبًا للراحة حين لا يبقى لهُ مطمع بزيادة الارتقاء. وهذا شأن رجال السياسة ايضًا ورجال الزراعة والصناعة وكل الذين جاهدوا جهاد الابطال وسبقوا غيرهم في ميدان الاعمال فانهم لا يكفّون عن طلب الارتقاء

الاَّ في ما ندر . وارباب السعي الذين خلقوا للارتقاء لا يقولون للذين سبقوهم قفوا حيث انتم لكي نلحق بكم او تأخَّروا لكي نسبقكم بل يقتدون بهم في السعي والجد ويتجمعون كل روض ويلقون دلوهم في كل حوض ناظرين الى الغرض الذي امامهم الى ان يدركوهُ . ولن ترى رجلاً يقول لغيرهِ قف حتَّى الحقك او تأخر حتَّى اسبقك وهو ممَّن يرجى نجاحهم

اجتمعنا بالامس برجل تلقَّى العلوم في اشهر مدارس اوربا ونال اسمى شهاداتها وانتظم في اعظم جمعياتها وتأهَّل لمنصب خاصٍّ في دوائر الحكومة المصريَّة تأهُّلاً تامًّا علمًا وعملاً ولكنهُ لم يشغله الاَّ مدة وجيزة وأُخرج منهُ ووُضع في منصب آخر يضيع فيهِ استعدادهُ وتذهب السنون التي قضاها في اعلى مدارس اوربا سدًى . وقد قصَّ علينا ذلك وهو يتأوَّهُ ويتحسَّر ويشكو من رؤسائهِ وقلة انصافهم فاذكرنا كثيرين حسب عليهم ذكاؤهم كما قيل ولم ينجحوا في العمل مع براعتهم في العلم لان آلات استعدادهم كان ينقصها قليل من زيت الدُّربة . فلا يخفى انَّ الآلات الكبيرة مهما تعدَّدت اجزاؤها واُحكم صنعها واُحسن وضعها لا تدور جيدًا ولا تعمل عملاً نافعًا ما لم يصبَّ عليها قليل من الزيت وهذا الزيت طفيف في نفسهِ ولا يمكن ان يدير آلة وحدهُ ولا يعمل عملاً كبيرًا ولا صغيرًا ولكنهُ ضروري لكل الآلات والادوات لكي يسهل عملها وتدور زمانًا طويلاً .

والعلم والفلسفة والبراعة والمهارة آلات للعمل ووسائط للنجاح ولكنها لا تجري يومًا واحدًا ولا تغني صاحبها بغير الزيت المشار اليهِ . والآلة التي زيتها كافٍ تجري نهارًا وليلاً ولو لم تكن متقنة الصنع ولا محكمة الوضع ولو اردنا ان نضرب امثلة على ذلك لامكننا ان نذكر اكثر الذين اشتهروا في العلم والفلسفة والحكمة والمهارة فانهم ماتوا في الفقر المدقع او اتوا امورًا يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها الحليم اولم يستفيدوا من مؤلفاتهم ومبتكراتهم ومخترعاتهم جزءًا من الف ممَّا استفادهُ منها مستخدموهم وما ذلك الاَّ لانهم كانوا خالين من الزيت المذكور زيت الدربة في العمل ووضع الامور في مكانها وزمانها . وهذا الزيت نفسهُ لا يجعل الانسان غنيًّا ولا اميرًا ولا شهيرًا ولكن كثيرين حُرموا من بلوغ الغنى والامارة والشهرة مع توفُّر اسبابها فيهم لانهم كانوا خالين من هذا الزيت

هذا ناهيك عن ان الاستخدام طريق واحد من طرُق المعاش وهو ليس افضلها ولا ارجحها فلا ترى مفلحًا بين الذين خدموا الحكومة حتَّى ترى عشرة افلحوا في التجارة او الزراعة ولاسيما في هذا القطر الذي كثر فيهِ طلاَّب الاستخدام مع ان وظائف الحكومة محدودة والاموال التي تنفقها على مستخدميها محدودة ايضًا بعهود دولية وباب الزراعة والتجارة

واسعان جدًّا ويحتملان الاتساع الى ما شاء الله

فلم نكد نبسط له هذه الامور حتّى صدّق لها واخذ يورد لنا الادلة التي تؤيدها ويستشهد بالناس في هذا القطر رقوا اسمى المناصب السياسية بعد ان ظنّ انهم غير اهل لادناها وبغيرهم من الذين لم يرتقوا مع ما ظهر منهم من النجابة وهم في حداثتهم وببعض الذين اهتموا بالزراعة فربحوا منها اكثر مما ربح اخوتهم من خدمة الحكومة .

وقد قيل ان ذكاء المرء محسوب عليه وما ذلك الّا لما شوهد من ان اذكياء العقول قلما يكونون اهل سعي وعمل ومن ان اهل السعي والعمل قلما يكونون من اذكياء العقول كأن الذكاء بوري نار العزيمة فيحترق وتنفد كما ينفد الوقود بالنار . وشأن الذكي العقل المهذّب شأن الموسى الحاد فهو شديد المضاء ولكنه يثلم لاقل سبب واذا كان من الذين هُذبوا التهذيب التام ورسخت في نفوسهم الوداعة والضعة اللتان تنجيان من الرسوخ في العلم عسر عليهم اقتحام الاعمال والنجاح فيها وصاروا اقرب الى الاكتفاء بالاقيسة المنطقيّة والادلة العلمية والاحجام عن المشاق حتّى قال احد ارباب الحكمة العملية لا يفلح من لا يخاطر ولا يخاطر من يعلم جهله . وقال ايضًا ان بعض الشبّان قد بولغ في تعليمهم وتهذيبهم حتّى لم يعودوا يصلحون الّا لان يوضعوا في معارض التحف لكي يتفرّج الناس برؤيتهم وما احسن ما قيل

الجدّ انهضُ بالفتى من عقلهِ فانهض بجدّكَ في الحوادث او ذرِ

ولا عبرة بنجاح بعض النوابغ الفاتنين في العلم والعرفان الذين يظهرون في الارض ظهور ذوات الاذناب في السماء فانهم نوادر والنادر لا يبنى عليه حكم

وما تقدم لا ينفي وجوب التعليم والتهذيب ولكنه يوجب قرنهما بالعمل لكي يستفيد صاحبهما منهما والّا اضاع العمر فيهما على غير نفع لنفسه ولا لغيره

والنجاح دعائم كثيرة غير التعليم والتهذيب وكلها لازمة مثله . والزيت المشار اليه آنفًا اشدها لزومًا اذ لا نجاح بدونه بخلاف العلم النظري المجرّد فانهُ ليس من الضروريات للنجاح بل قد يكون عقبةً في طريقه . قيل ان حكومة الصين تجعل المهارة في العلوم النظريّة شرطًا واجبًا للتوظّف ولا تقبل موظفًا في خدمتها ما لم يجتز الامتحان الصارم في جميع العلوم النظريّة فكانت نتيجة ذلك أن ساءت احوالها وانحطت دولتها عن كل دول الارض

وكيف يفلح في امور الدنيا رجل مثل ابن رشد الفيلسوف العربي وهو لا يعرف ان يداري اهل زمانه او مثل كرنيل الشاعر الفرنسوي الشهير وهو لم يعرف كيف يدّخر

ريالاً واحدًا لشيخوخته او مثل بتوفن الموسيقي الالماني الشهير وقد كان لا يعرف ان يقطع الكوبون من سند بيده فيبيع السند كله اذا احتاج الى قليل من الدراهم. وأراد مرة ان يشتري قليلاً من النسيج ليخيط منه قميصًا فارسل الى احد اصدقائه ٢٥ جنيهًا ليشتري له النسيج المطلوب مع انه كان يضطر احيانًا ان يعيش اربعة ايام على الخبز الحاف. او مثل غلدسمث الكاتب الانكليزي الذي كان احكم الناس والقلم في يده فان الاموال كانت تنهال عليه انهيال السيل ولكنه كان ينفقها يوم ورودها و يتبلغ بالقوت تبلغًا في يومه التالي. وربَّ قائل يقول ما هو الخلق اللازم للنجاح او ما هو الزيت الذي اشرتم اليه. والجواب ان المتصف بهذا الخلق ينتبه الى كل الامور التي نحسبها طفيفة ويحكم اعتبارها او يستفيد منها سواء كان بائعًا او شاريًا حالاًّ او راحلاً ضيفًا او مضيفًا دائنًا او مديونًا مخاطبًا او مجاوبًا وغير المتصف بها يشتري امتعته من اغلى الاسواق و يبيع بضائعه في ارخصها و يلصق ببقعته لصوق الحار في صخور البحر او يركب كل راحلة لفائدة ولغير فائدة و ينتقد طعام مضيفه و يمنُّ على اسمى ضيوفه مقامًا و يدين اموالاً لمن لا يرتجى منه ايفاؤها و يستدين ممن يطلب الربا الفاحش و يقلب الصك مرتين في الشهر. ولا ينتبه الى الثاب الذين يخاطبهم فيعامل الرئيس كالمرؤوس والمرؤوس كالرئيس

وقد يعجب الناس من قصور بعض المشهورين بالعلم والنُّبل عن ارتقاء المناصب العالية ونجاحهم في امور الدنيا ولكنهم لو امعنوا نظرهم في ذلك لما خفي عليهم امرهُ فان التبحُّر في العلوم والنجاح في الاعمال امران مختلفان مستقلان تمام الاستقلال فمن اقتصر على المباحث النظرية لم يشعر بما يشعر به من ضيق بحثه النظري وانتبه الى الامور المعاشية ايضًا ناهيك عن ان الانتباه الى الامور المعاشية مجردًا عن المباحث العلمية النظرية يكفي للنجاح في امور الدنيا. فبينما ترى العالم المحرر ينظر في مقدمات القياس واحدة واحدة للبلوغ الى النتيجة ترى رجل الدنيا يثب وثبة الليث من المقدمة الاولى الى النتيجة الاخيرة دفعةً واحدة و يقبض على الغنيمة التي ضاعت من يد العالم لبطئه. و بينما ترى رجل الاماني جالسًا في بيته يلوم اهل المناصب لانهم لا يختلون عنها اذ ترى رجل الحزم يغالبهم عليها و يبتزُّها من يدهم قوةً واقتدارًا بتأهيل نفسه لها واغتنام الفرص للحصول عليها. فليس في هذه الدنيا «تخلَّ عن مقامك وضعني فيه بل خُذ الاهبة لنفسك فانني مزاحمكَ عليه»